الاصـول التاريخيـة للملاحم القحطانية

بقلـــم
ميخائيـــل بتروفســـكي
« معهــد الاستشراق • • لينينغراد »

ان دراســة الاخبار عن اليمن القديمة التى احتفظت بها المؤلفات العربية الاســلامية تكتسب أهميــة كبيرة في مجــال الأبحــاث اليمنيــة • وكثيرا مــا استخــدم هــذه المعلومات في عملهــم ولكن طابــع هــذه الاخبــار وتركيبها وأصولها لا تزال حتى الان غير معروفة بصورة كاملة وواضحة •

ومن الممكن تقسيم كافة الاخبار العربية والاســلامية حول اليمن القديمة الى مجموعتين الاولى بقايا الحضــارة اليمنيــة التى لم تــزل تعيش ضمن الحضــارة الاســلامية في اليمن • وتحتوى هــذه المجموعــة على معلومات حول الخط المسند واللغــة اليمنيــة القديمــة ووصف الخــرائب الآثارية (الهمداني) ومنهــا بقايا بعض التقــاليد والطقوس الماضية (انظر أبحــاث ديمكاس و سارجينتر) وبعض النماذج من الفولكلور اليمنى وبعض انســاب القبائل • • ومنها التقاليد الزراعية الظــاهرة في الاعراف وفي التقويم اليمنى الزراعي (مثــلا القصيدة الزراعية) التى تشير الى الاسماء الحميرية للأشهر التى درسها (بيستون) • وقــد بدأ العمل من اجل جمع هــذه المعلومات من مؤلفات الطبرى وياقوت الحموى والهمداني ويقوم بهذه العملية القسم العربي في معهد الاستشراق في لينينغراد • والى نفس الاتجــاه يرمي مشروع اختيار الألفاظ اليمنية من كتب اللغويين العرب الذى اقترحتها (بيرين) •

ولا يحتــاج استخدام مثــل هــذه المعلومات الى الأبحــاث الادبيــة التاريخية التمهيدية لانهــا بقت كرواسب الحضــارة الماضية ولم تتغير كثيرا

تتيجة لانضمامها الى الحضـارة الاسـلامية •

ولا يمكن ان نقول نفس الشيء عن المجموعة الثانية وهي مجموعة الاخبار التى تكون التاريخ الاسطورى لليمن القديمة والنى سماها (كريمر) « الملاحم العربيـة الجنوبيـة » • وقـد أصبحت هـذه الاخبـار جزءا لا يتجزأ من تاريخ العرب العـام وقـد تعرضت للتأثيرات الثقافية والسياسية العديدة • ولذلك لا يمكن استخدامها في الابحـاث التاريخيـة بصورة واسعة قبـل ايضـاح أصولها التاريخيـة وعلاقاتها الحقيقية من واقـع اليمن القـديم • ويستهـدف تقـريرنا هـذا الى تقـديم بعض هـذه المـلاحم والاخبـار شـبه التاريخيـة •

ويشـابه تحليل هـذه الاخبار تنقيب البناية الآثارية التي يوجـد فيها كثير من الاضـافات والتغيرات من مختلف مراحـل حيـاة البنـاية والتى استخدمت لتشييدها اجزاء المبـاني القائمة سابقا في نفس المكان أو مكان آخر • ويتلخص هـدف الباحث في تمييز بين العناصر لتلك الطـابع المختلف وفي تحـديد أصولها وتاريخهـا والترابط بينهـا •

وقـد حاولنا ان نحقق مثـل هـذه العمليـة بنسبة الى المـلاحم العربيـة الجنوبية أو القحطانية • وأنها وصلت الينـا ضمن الكتب العربية العـديدة مثـل (كتـاب التيجـان) و (سـيرة النبى) لابن هشـام و (تاريـخ) و (تفسير) للطبرى و (اخبـار عبيد بن شرية) و (سيرة دغفـل الشيباني) و (وصـايا الملوك من ولد قحطـان) وفي المؤلفات الكثيرة لهشـام الكلبى والمهداني ونشوان الحميرى •• الخ ••

وتضمن هـذه الكتب مجموعة الاسـاطير والمـلاحم المركز حول المحور التاريخي الوحيـد • وتبدأ سلسلة الاجـدات الاسطورية من عهـد يعرب وعبد شمس ـــ سبأ وقصـة لقمان الحكيم وبنى عاد • كان تقسيم السلطة بين بنى عبد شمس : حمير وكهلان نقطة الانعطاف التـاريخي وبعدها جـاء

التبابعة وهم الملوك من ولد حمير وكانوا بينهم الغزاة الكبار مثل الحارث الرائش وأبرمة ذي المنار وأفر وعمرو ذي الادعار والأخرين • وانقطع حكم التبابعة في وقت بلقيس ملكة سبأ • وعادت السلطة الى الأسرة التقليدية في عهد ياسر ينعم ومن أولاده المشهورين : شمر يرعش الذي دمر سمرقند وأسعد الكامل صاحب الأيمان بالله • وبعد ذلك جاءت مرحلة الصراعات الداخلية وخرجت سد مأرب وهاجرت قبيلة الأزد الى الشمال والمرحلة التالية كانت وقت حكم ذي نواس والاحتلال الحبشي ووقت حملة ابرهة الاشرم على مكة وبطولة سيف بن ذي يزن والغزو الفارسي لليمن •

وتشير الدراسة الدقيقة لهذه المؤلفات انها أخذت اخبارها عن الكتب والاشخاص من الفترة ما بين القرن السابع واوساط الثامن الميلادى وهذا هو وقت تدوين وتثبيت الملاحم القحطانية • وما هي الظروف التى جرى فيها هذا التدوين ؟ والى أى درجة قد تستطيع هذه الظروف الخارجية ان تأثر على تغيير الاخبار الاصلية ؟ •

ان هذا العصر ، عصر الدولة الاموية ، كان يتميز بالصراع العنيف بين تجمع القبائل اليمنية (القحطانية) وتجمع القبائل الشمالية (العدنانية) وجرى النضال من أجل حصول على المواقع القيادية في الدولة الاسلامية • وأن الاحداث السياسية وأهمية هذا الصراع معروفة للجميع معرفة جيدة • وبالنسبة الى هدفنا من الضرورى ان تشير فقط الى بعض الوقائع المهمة •

اولا : ان القحطانية كانت تجمعا غير منسجمة وكانت تتكون من القبائل التى خرجت من اليمن مع الاسلام (حمير • كنده) ومن القبائل العربية السورية (كلب • جزام) وكان الاصل اليمنى القحطاني لهذه القبائل الثانية موضع الشك والنقاش وكان يحتاج الى الدلائل الثابتة •

ثانيا : ان مجد اليمن القديم وتقليد سيطرة الملوك اليمنيين على

جميع العرب كانت الحجة الرئيسية لتثبيت حق القحطانيين الى الدور السياسي القيادي في الدولة العربية الجديدة • وقد خلقت هذه الظروف الخاصة الطلب الاجتماعي لتدوين ونشر الاخبار التاريخية حول اليمن وانها سببت حفاظا على التراث من الجانب التاريخي وأدت الى تغييره وتكييفه للأوضاع السياسية الجديدة من الجانب الآخر •

وأن اليمنيين الذين اشتركوا في انشاء العلوم العربية الجديدة مثل علم التاريخي وعلم الانساب وعلم التفسير وعلم الحديث (كعب الاحبار ووهب بن منبه ومعاويه بن صالح •• الخ ••) والذين قاموا بتطوير الشعر السياسي والشعر العاطفي • (اعشى همدان ويزيد بن مفرغ)(وعلقة بن ذي جدن ووضاح البن •• الخ ••) انهم جمعوا اخبار عن ماضي بلادهم واستخدموها للأغراض السياسية عندما كانوا يمدحون الثروة والجبروت والايمان والتقوى للقحطانيين القدماء وهكذا تشير تحليل الحياة السياسية والثقافية في عهد الدولة الاموية الى ان العملية التى هاجرت في القرن السابع والثامن لم تكن تدوينا عاديا فحسب بل انها كانت تحولا ابداعيا وللاخبار عن اليمن القديمة •

ولكي بأية الطرق قد حققت هذه العملية الابداعية لازم تنظر على النصوص الشعرية والنثرية • وقد اخترنا أوسع وأشهر مجموعة من الملاحم القحطانية وفحصنا استنتاجات دراستها بمقارنتها من كافة الملاحم الأخرى • والمجموعة التى اخترناها هي الملاحم عن اسعد الكامل الذى كان مشهورا كالغازى العظيم وفتح الجزيرة العربيه كلها والعراق وسورية ومصر وايران واسيا الوسطى وكان معروف في الاساطير ايضا كالملك المؤمن الذى حارس الوثنيين وقدم القرابين للكعبة وعبد الله وأعتنق دين التوحيد • وقد نسبت اليه قصائد عديدة وكان الناس يزعمون انه تبع الذى ذكره القرآن الكريم في سورة « الدخان » (اية ٣٧) •

وتنعكس الخطوط العريضة لهذه الاساطير الظروف التاريخية الواقعية في عهد الملك الحميرى أبو كرب اسعد (الفترة ما بين نهاية القرن الرابع وأواساط القرن الخامس الميلادى) أن نقوش من تلك الفترة تثبت أهمية المرحلة في التاريخ اليمني • وقد توسعت الدولة اليمنية الموحدة الى أقصى حدودها التاريخية وأخذ الملك اللقب الجديد • ملك سبأ وذى زيدان وحضرموت ويمنت اعرابهم طورا وتهامه •وقامت الدولة بالسياسية النشيطة في المناطق الوسطى والشرقية من الجزيرة العربية وقد تعزز نفوذ القبائل البدوية وظهر الاعيان الجدد (الاقطاعيون) • وفي تلك الفترة بدأ في اليمن التنقل من الديانة القديمة الى التوحيد وتظهر في النقوش العبارات التوحيدية وانتشرت الديانات المسيحية واليهودية • ولذلك كان عصر حكم أبو كرب اسعد مرحلة مهمة في حياة جنوب الجزيرة العربية ولعبت الظواهر الجديدة التى نشأت في هذا الوقت دورا كبيرا في تطور البلاد اللاحق • وتأكد المعلومات التاريخية المكانة البارزة التى احتلها أبو كرب اسعد الكامل في الملاحم القحطانية ويشير هذا الى وجود الأسس التاريخية والواقعية لهذه الملاحم والاخبار •

وتحكي الملاحم القحطانية عن المواضيع والمواد المشابهة • وكان موضع القدر من أهم المواضيع في اشعار اسعد الكامل والتابعة الآخرين وفي وصايا الملوك والنصوص الأخرى • ويكشف التحليل الدقيق ان هذا الموضع في الاخبار القحطانية كان يتميز بالوظيفة الخاصة وكان الكلام حول القدر يرمي الى تبرير شعوب الوثنيين القدماء والى تأكيد حق الاخلاف على مجد الاسلاف وكانت هذه الوظيفة الفكرية تخدم مصالح القحطانيين السياسية • ان هذا وطريقة استخدام الكلمات القدرية تشير الى ان هذه الملاحم قد اتخذت شكلها النهائي والثابت في العهد الاسلامي في فترة القرنين السابع والثامن •

ومن مواضـع المـلاحم الاساسية وصف الحملات العسكرية وتحتوى هـذه القصص على كثير من الاخبـار الخياليـة الرامية الى تعزيز ومـدح الملوك اليمنيين القدماء وقـد اثبتت هـذه القصص من المصـادر المختلفـة العـديدة • والمصـدر الاول هو حكايات حول الفتوح الاسـلامية • ومن هـذه الحكايات مثـلا ولدت قصـة تدمير سمرقند واحتلال الثبت في عهد شمر يرعش • والمصـدر الآخر هو الرواية المشهورة عن الاسـكندر الأكبر وقـد دخلت اسـاطير من هـذه الرواية الى مـلاحم لأسعد الكامل (حملة الى أرض الظلمات) ولياسر ينعم (حملة الى وادى الرمل) ولعمر ذى الادعار (لقاء مع الناس الذين كانت عيونهم في صـدورهم) وللأقرن (سير الى منبع الحيـاة) • وحتى الاسـكندر نفسـه كان يعتبر ملكـا يمنيـا تحت لقب ذى القرنين • وأصبح اسعد الكـامل بطل القصص العربيـة الشمالية التى كانت أصـلا مرتبطـة بالأشخاص والعصور الاخرى • وان قصـة حصـار يثرب هي الشـكل الجـديد للاسـطورة المحليـة عن أبو كرب بن جبلـة (القرن السـادس) •

وقصـة غزو العراق ليست الا الرواية الأخرى للأحـداث التاريخية من القرن السـادس ايضـا عندما كانت الحيرة محتلة من قبـل الملك الكندى الحـادث بن عمـرو • والتحقت قصـة غزو الفيـل (القـرن السـادس) في الملحمة حول حملة اسعد الحجازى • وأصبحت الأحـداث الواقعيـة من حكم ملك تدمر اذينه (القرن الثـالث) جزء من الترجمة الاسطورية لحيـاة الملك الحميرى شمر يرعش •

وقـد أعلن ان اسعد الكامل مذكور في القرآن الكريم تحت اسم تبع وأن المـلاحم القحطانيـة بصـورة عامـة قـد اشتملت على كثير من القصص والشخصيات القرآنيـة وحتى على تلك التى كانت أصـلا غير مرتبطـة بـ (ارم ، لقمان ، شعيب ، ذو القرنين) •

ولكن بعض الاخبار مثلا الاخبار عن حملة اسعد الحجازية ، وعن اعتناق دين التوحيد تناسب الوضع التاريخى ومن المحتمل انها انبثقت من التراث اليمني الاصلى الذى تعرض فيما بعد للتوسع والتشويه والحجاز وسورية •

وتهتم جميع الملاحم بوصف الجيوش الحميرية وان قائمة القبائل التى اشتركت في الحروب غير واقعية وتنعكس في الحقيقة العلاقات القبلية التى نشأت في العهد الاسلامى فقط • ولكن المصادر والرسوم القديمة تثبت صحة وصف الاسلحة ونظام الجيش الحميرى (مثلا تنسيق بين الخيل والمشاة او بين وحدات البدو ووحدات الحاضر • وهذا يشابه عبارة النقوش : خمس واعرب او خمس وافرسن) •

وتثبت دراسة اسماء الاماكن واعلام المذكورة في الملاحم وجود الاصول اليمنية العميقة لهذه الاخبار • وان هذه الاسماء هى يمنية حقا وكثير منها مذكور ايضا في النقوش •

وتتميز الطبقة اليمنية الحقيقة داخل الملاحم القحطانية بالخاصية المهمة • ان جميع الاخبار التاريخية الواقعية عن اليمن القديم مرتبطة بمرحلة تعزز دور القبائل البدوية في حياة البلاد • والمحور الاساسى لتاريخ اليمن الاسطورى هو تقسيم السلطة بين حمير وكهلان الذى كان جدا لجميع القبائل اليمنية البدوية • ولاتعرف الملاحم الملوك من الفترة مابين القرن الثالث والسادس الميلادى وتبرز بصورة خاصة الملوك الذين قاموا بالسياسة النشيطة في المناطق الشمالية من اليمن وخارجها • (شمر يرعش وابو كرب اسعد) • ولم تذكر الملاحم اية الاحداث في جنوب اليمن ولا الحروب الاولى مع الاحباش وانها قد نست حتى غز حضرموت ويمنت في عهد شمر يرعش • ويتركز وصف الجيش على القبائل البدوية بالدرجة وتشير هذه الخصائص الاخرى الى ان اصول الملاحم القحطانية البدائية الاولى كانت مرتبطة بالفئات الجديدة في المجتمع اليمنى • بالقبائل

البدوية وبالاعيان الاقطاعيين الجدد والى درجة باليمنيين المتهودين ·

وتتيح هذه الاستنتاجات الفرصة لنعيد تاريخ تشكيل وتكوين الملاحم والاخبار القحطانية · وانها نشأت اولا اثناء المرحلة المتأخرة من حياة الحضارة اليمنية القديمة · في عهد الحميريين الاخرين عهد السياسة النشيطة في الجزيرة العربية عهد تعزز قبائل البدو وظهور الاعيان الجدد في عهد التحول الفكرى نحو التوحيد ·

وقد نقلت هذه الاخبار الاصلية الى الحجاز مع اليمنيين الذين اسلموا وهناك انضمت اليها بعض الاخبار العربية الشمالية وبعض القصص القرآنية· وان جزء من هذه الاخبار الجديدة كان في الحقيقة تحكى عن اليمن ولكن الجزء الكبير منها كان لا يملك اية علاقة مع اليمن القديمة وتاريخها · وحدثت هذه عملية توسيع الملاحم اليمنية في ظل الصراع بين المهاجرين والانصار (القحطانية) وانها كانت جزءا من نشاط اليمنيين في مجال تفسير القرآن حسب مصالحهم السياسية والاجتماعية ·

وبعد تعاظم الصراع بين القحطانيين والعدانيين في سورية اتخذت الملاحم القحطانية التوجه السياسى والفكرى الواضح وانها ازدادت مواضع جديدة مقتبسة من رواية عن الاسكندر الاكبر ومن قصة الفتوحات الاسلامية· وفي نفس الوقت (في نهاية القرن السابع واواسط القرن الثامن) بدأت عملية جمع وتدوين هذه الملاحم من قبل الناس مثل عبيد بن ثرية ووهب بن منبه ويزيد بن مفرغ ···الخ ·

وعندما انخفض الصراع بين التجمعات القبلية في نهاية القرن الثامن انتهت معه تطور ونمو الملاحم · وعادت الى اليمن في فترة بين القرن العاشر والثانى عشر واغتنت هناك بالاخبار الجديدة التى بقت في عقول سكان البلاد · (مثل بعض قطاعات من الفولكلور في شرح القصيدة الحميرية وبعض الاشعار التى تذكر اسماء الملوك العديدة في (الاكليل للهمدانى) · وقد

اتخـذت الملاحم القحطانية شـكلها الادبى النهائي التام في مؤلفات نشوان الحميرى .

وفي نهاية هـذا الموجز يمكن ان نشير الى مجال التاريخ اليمنى الـذى يسـتطيع الباحث ان يسـتخرج معلومات عنه من الملاحم القحطانية . وهو المعلومات عن الاحداث والظواهر السياسية من الفترة مابين القرن الرابع والسـابع وبصورة خاصة عن عصر بين نهاية القرن السـادس واواسـط القرن السـابع ولاتوجد لدى العلماء اية نقوش من هذا الوقت . ويشـير بحثنا ايضا الى ان قبل استخدام الملاحم كمراجع تاريخية من الضرورى فرز طبقاتها العليا .. يعنى المعلومات ذات التوجيه السياسى الواضح وقصـة الفتوح الاسلامية والاخبار العربية الشـمالية واجزاء من رواية للاسكندر الاكبر .

وتكتسب الملاحم القحطانية اهمية كبرى كمراجع للدراسات التاريخية الثقافية . وانها قد ربطت بين حضارة العرب قبـل الاسـلام وحضارتهم الاسلامية واصبحت هذه الملاحم اساسا لتاريخ العرب العام وكانت ايضـا مصدر لكثير من القصص والاخبار الخيالية والذكريات التاريخية التى تمتلأ بها الكتب العربية في العصور الوسـطى سـواء الادبيـة او التربوية او التاريخية او الفلسـفية او الجغرافية او الدينية . واصبحت هذه المجموعة من الاشخاص والحكايات التاريخيـة صفة من الصفات المميزة للحضـارة الاسـلامية .

وفي اعتقادنا تشير هذه الاستنتاجات ليس الى اهمية الملاحم القحطانية لتاريخ اليمن فحسب بل والى الافق الواسـع لدراساتها المقبلة ..